

السلم الاجتماعي في القرآن الكريم مركزيته وأبعاده الحضارية

Social Peace in Holy Koran: Its Centrality and Civilized Dimensions

أ.د. محمد زرمان * مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

جامعة باتنة 1 facbatna@gmail.com

تاريخ الإرسال	2019/11/23م	تاريخ القبول	2020/01/28م
---------------	-------------	--------------	-------------

ملخص

المقامل في نصوص القرآن الكريم لا يفوته ما يتضمنه من اهتمام بالغ بالسلم الاجتماعي، وحرص كبير على ترسيخ مبادئه وقيمه، وإحاطته بسياج من الأحكام الشرعية الصارمة التي تحميه من كل ما يهدده، بحيث يغدو مقصدا هاما من مقاصده الكبرى، فالقرآن في مبادئه ومعناه يؤسس في نصوصه لبناء السلم الاجتماعي وإرساء دعائمه الكبرى في المجتمع، ويحافظ في الوقت نفسه على هذا البناء ويحرص على تحصينه، وحمايته من كل ما يقوّض أركانه أو يستهدفه بالهدم.

وتطرح هذه الورقة البحثية إلى الإجابة عن مجموعة من الأسئلة والإشكالات منها: هل هناك مفهوم دقيق وواضح وصريح للسلم الاجتماعي في القرآن الكريم؟ وهل ثمة مصطلحات أخرى تتقاطع مع مصطلح السلم الاجتماعي؟ وما مكانته في القرآن؟ وما هي أبعاده الكبرى من حيث كونه واجبا شرعيا، ومطلبا حياتيا، وضرورة حضارية، وحاجة إنسانية؟ وهل للسلم الاجتماعي في الخطاب القرآني بعد محلي يخص المسلمين فقط أم له بعد إنساني عام؟ وكيف يمكن اليوم في عالمنا المعاصر الاستهداء.

الكلمات المفتاحية: السلم الاجتماعي؛ السلم المدني؛ السلم الأهلي؛ الأمن الفكري؛ الأمن المجتمعي.

Abstract

There is no doubt that social peace is one of the most important demands of civilization. It represents the greatest concern of humanity in every place and time because of its good effect on the stability and tranquility of souls and in the preservation of rights and the maintenance of public security. Who reads Koran thoroughly cannot miss the attention it attaches to social peace. This paper attempts to answer a number of questions and problems: Is there an exact, clear and explicit concept of social peace in the Holy Koran? Are there other terms that intersect with the term social peace? What is its place in Koran? What are its great dimensions being a legitimate duty, a life demand, a civilized necessity and a humanitarian need? Is social peace in the Koranic discourse a local dimension only for Muslims or a general human dimension? And how can it be sought in our contemporary world today?

Keywords: Social security; civil peace; intellectual security; community security

1. مقدمة

ليس هناك شك في أن السلم الاجتماعي مطلب من أهم المطالب الحضارية وأكثرها ضرورة، إذ يمثل الهاجس الأكبر للبشرية في كل مكان وزمان نظرا لما له من أثر طيب في استقرار النفوس وطمأنينتها، وفي حفظ الحقوق واستتباب الأمن العام. وفي ظلّه تنتعش قدرات الإنسان وتتضاعف فرص تنميته، وتفتح مواهبه وتتجه أنشطته نحو تحقيق مزيد من الإنتاج الفكري والتقني، وتهيئة الظروف للحصول على أعلى قدر من الاكتفاء، وفي ظل هذه الظروف الآمنة يتهيأ الإنسان لأداء مهمته الاستخلافية الكبرى في بناء الحضارة وصنع التاريخ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾.

لذلك كان غياب السلم الاجتماعي وتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية بين أفرادها وهدر حقوقهم وحرمانهم منها، واستباحة أموالهم وأعراضهم ودمائهم بالرشوة والمحسوبية، والبغي والعدوان، وكل أشكال الفساد المالي والإداري مؤشرا خطيرا على التردّي في مهاوي الفرقة والنزاع والصراع الداخلي الذي يفضي إلى التآكل والتشظي، ويحبس أفرادها في دوامة الفتن والقلق التي تعدّ عامل كبح رئيس لمسيرة التنمية وتأهيل الإنسان والارتقاء به لإنتاج المعرفة واستقرار سنن الله في الأنفس والأفاق: ﴿وَزَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾. والمتأمل في نصوص القرآن الكريم لا يفوته ما يتضمنه من اهتمام بالغ بالسلم الاجتماعي، وحرص كبير على ترسيخ مبادئه وقيمه، وإحاطته بسياسات من الأحكام الشرعية الصارمة التي تحميه من كل ما يهدده، بحيث يغدو مقصدا هاما من مقاصده الكبرى، فالقرآن في مبناه ومعناه يؤسس في نصوصه لبناء السلم الاجتماعي وإرساء دعائمه الكبرى في المجتمع، ويحافظ في الوقت نفسه على هذا البناء ويحرص على تحصينه، وحمايته من كل ما يقوّض أركانه أو يستهدفه بالهدم.

وتطمح هذه الدراسة إلى الإجابة عن مجموعة من الأسئلة والإشكالات منها: هل هناك مفهوم دقيق وواضح وصريح للسلم الاجتماعي في القرآن الكريم؟ وهل ثمة مصطلحات أخرى تتقاطع مع مصطلح السلم الاجتماعي؟ وما مكانته في القرآن؟ وما هي أبعاده الكبرى من حيث كونه واجبا شرعيا، ومطلبا حياتيا، وضرورة حضارية، وحاجة إنسانية؟ وهل للسلم الاجتماعي في الخطاب القرآني بعد محلي يخص المسلمين فقط أم له بعد إنساني عام؟ وكيف يمكن اليوم في عالمنا المعاصر الاستهداء بهذه القيم القرآنية المؤسّسة للسلم الاجتماعي في زمن الصراعات والفتن الداخلية والحروب الأهلية؟

2. مفهوم السلم الاجتماعي في القرآن الكريم

1.2 مفهوم السلم الاجتماعي

السلم الاجتماعي مصطلح مركب من كلمتين، فالسلم لغة مشتق من الفعل الثلاثي (سَلَّمَ)، يقول ابن فارس: "السين واللام والميم معظم بابه من الصحة والعافية، والسلامة أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى، قال أهل العلم: الله جلّ ثناؤه هو السلام لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء" (بن فارس، 1979، صفحة 90). ومن معاني السلم أيضا الاستسلام والطاعة والخضوع، والصلح وترك الحرب والمنازعة، كما تتضمن هذه اللفظة معنى المودعة والسلامة أي البراءة والعافية والنجاة من العيوب والآفات والأخطار. ويُطْلَقُ السِّلْمُ بلغاته الثلاث: السِّلْمُ والسَّلْمُ والسَّلَامُ على ما يقابل الحرب، قال ابن منظور: "السَّلْمُ والسِّلْمُ: الصُّلْحُ، وتسالموا: تصالحوا، والخیل إذا تسامت تساميرت، لا تُهَيِّجُ بعضها بعضا، وقول أحدهم لغيره سلام، أي أمري وأمرک إلى المُبَارَاةِ والمُتَارَكَةِ" (بن منظور، 2003، صفحة 244). ويقال للجنة دار السلام لَحُلُوهَا من الآفات، والسلام من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (سورة الحشر، 23)، ومعنى السلام هنا: "المنزلة من العيوب والنواقص، المتصف بدوام الكمال" (راجي و كناس، 2003، الصفحات 275-276). والسلم بهذه المعاني ميل فطري يجنح إليه كل إنسان، ويبحث فيه عن الأمن والاستقرار. أما كلمة المجتمع فهي مشتقة من الفعل اجتماع، تقول العرب: اجتمع القوم: انضم بعضهم إلى بعض، واتحدوا واتفقوا. والمجتمع مكان الاجتماع، والمجتمع أيضا فئة من الناس تشكل مجموعة يعتمد بعضها على بعض، أو هو المجموعة البشرية المتمركزة في مكان واحد. وهو من الناحية الاصطلاحية مجموعة من الأفراد الذين تربطهم شبكة من العلاقات المركبة، ومن العادات والتقاليد والأحكام الأخلاقية والمصالح التي تستوعب كل مناحي الحياة وتنسحب على كل المجالات ذات الصلة بحاجات الإنسان المختلفة المادية والنفسية. ويعرفه روبرت ماكيفر Robert MacIver بأنه: "وحدة اجتماعية تجمع بين أعضائها مجموعة من المصالح المشتركة، وتسود بينهم قيم عامة وشعور بالانتماء، بالدرجة التي تمكّنهم من المشاركة في الظروف الأساسية لحياة مشتركة"، (حسن إ.، 2013) بينما تعرفه موسوعة علم الاجتماع بأنه: "جماعة من الناس تقطن بقعة جغرافية معينة، وتزاول نشاطات اقتصادية وسياسية ذات مصلحة مشتركة ولها تنظيم إداري يحدد طبيعة حكمها" (الحسن، 1999، صفحة 555).

فإذا جمعنا المصطلحين معا وجدنا أنفسنا أمام مصطلح السلم الاجتماعي الذي يجمع معاني اللفظتين، ويمكن تعريفه بأنه حالة الاستقرار والطمأنينة التي تشيع بين الناس بحيث يستطيعون التفرغ لأعمالهم، ومزاولة نشاطاتهم، وتنظيم أمور حياتهم الاجتماعية وهم آمنون على أنفسهم وأهلهم وأموالهم، بعيدا عما يهدد وجودهم من حالات الفقر والجهل والعوز والبطالة، وما يثير مخاوفهم

واضطرابهم من انتشار الجريمة والانحراف، وما يقض مضاجعهم من أخطار خارجية وتهديدات أجنبية.

كما يعبر أيضا عن حالة الוותام والانسجام السائدة بين أبناء المجتمع الواحد بكل قواه وشرائحه على اختلاف توجهاتهم وانتماءاتهم. على اعتبار أن السلم حاجة أساسية لاستمرار الحياة وديمومتها، وأن فقدانه يورث القلق والخوف والاضطراب، ويعرقل مسار التنمية ويوقف أسباب الرزق ويجعل الأمة في حالة ضعف، تتسلط عليها الأمراض الاجتماعية ومظاهر البؤس والمسكنة وألوان القهر والإذلال مما يغري بها أعداءها، ويجعلها لقمة سائغة لقوى الظلم والطغيان. لذلك كان من أهم مرتكزات السلم الاجتماعي احترام الاختلاف وتعزيز العيش المشترك، والإقرار بالتنوع، وإشاعة المحبة والוותام بين أبناء المجتمع الواحد على اختلاف عقائدهم وألوانهم، وثقافتهم، وكفالة حقهم في الحياة وحقهم في الكرامة الإنسانية بما يضمن الأنفس والعقول والأعراض والمعتقدات.

وهذه الحالة من الاطمئنان والسلام الداخلي والتناغم والانسجام بين أفراد المجتمع الواحد هي التي دعا القرآن الكريم إلى تحقيقها من خلال توجيهاته وتعاليمه التي تسير جميعا في سبيل التأسيس للمجتمع الآمن الذي يسوده السلم وينعم فيه الأفراد بالسكينة التي تؤهلهم لأداء واجبهم الكوني الذي خلقوا من أجله، وهو القيام بأعباء الاستخلاف في الأرض، باستكشاف خباياها، وتجلية أسرارها، وتسخير مقدراتها، وعمارتها بالعدل والخير والصلاح، والاسترشاد فيها بهدى الوحي تنفيذا للعهد الرباني الذي جعل الأرض مسرحا واسعا للإنسان ليثبت فيه جدارته بهذه المهمة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (سورة البقرة، 30).

ومهمة الاستخلاف تحتاج إلى قدر كبير من السلم الاجتماعي الذي يتيح للأفراد بيئة صالحة لتتفتح فيها قدراتهم العقلية والنفسية، وتنتعش مواهبهم فيبدعون وابتكرون الجديد، ويسيرون بالإنسانية أشواطاً نحو الرقي والتقدم، لذلك تضافرت آيات الكريمة لتكوّن منظومة متكاملة من الأحكام والتوجيهات والأخلاقيات التي تفضي إلى مجتمع سليم يحس فيه الفرد بإنسانيته ويمارس فيه مهمته الاستخلافية ودوره في إقامة العمران البشري بكل ما أوتي من جهد وقوة.

2.2 مصطلح السلم الاجتماعي وتقاطعه مع مصطلحات أخرى

ويتقاطع مصطلح السلم الاجتماعي مع مصطلحات عديدة تشاركه في المعنى العام الذي يدل على الاطمئنان والارتياح وعدم الخوف واستقرار العلاقات الاجتماعية، وشيوع مظاهر التآلف والتكاتف والتضامن بين أفراد المجتمع الواحد، وغياب كل أشكال التهميش والإقصاء والصراع، ومنها السلم المدني، والسلم الأهلي والأمن الاجتماعي. وسنحاول فيما يلي أن نشير إلى بعض الدلالات التي يكتسبها كل مصطلح من هذه المصطلحات:

1.2.2 السلم المدني

والذي يعني طمأنينة الأفراد والمجتمع، وغياب كل أسباب الخوف والقلق النفسي، وانخفاض مستويات الجريمة إلى حدها الأدنى، وانتفاء كل أشكال الصراعات والنزاعات والحروب الأهلية، وسيادة حالة الوئام والانسجام بين أبناء المجتمع الواحد بكل قواه وشرائحه على اختلاف توجهاتهم وانتماءاتهم، أو بعبارة أخرى: "هو الترابط المجتمعي الوطني القائم على قبول التنوع، ونبذ العنف والإكراه، والتعامل الحضاري والسلمي مع جميع الأشخاص المشتركين في المواطنة بغض النظر عن اختلافاتهم" (مفهوم السلم الأهلي، د ت).

2.2.2 السلم الأهلي

والذي يقوم في أساسه على تنمية الرابطة الوطنية وصياغة الواقع الوطني بعيدا عن العصبية في إطار التعددية الدينية والإثنية، ونبد العنف والإكراه، والقبول بالتنوع، والتعامل السلمي والحضاري مع المختلفين والمتغايين، وإلغاء كل أشكال النبذ والتهميش من حقل السياسة والفكر والاجتماع. وقد ذهب بعض الدارسين إلى أن معنى السلم الأهلي: "أن يعيش الإنسان حياته، ويمارس أعماله بحرية مسؤولية، وأن يحصل على متطلبات عيشه وحقوقه بيسر وسهولة، دون أن يخشى الاعتداء على حقه أو ماله أو على أمنه الشخصي أو أمن أهله، وأن يرفض كل أشكال القتال والقتل، أو الدعوة إليه أو التحريض عليه، أو تبريره" (عامر و آخرون، 2013، الصفحات 7-8).

3.2.2 الأمن الاجتماعي

وهو يعني في جملة ما يعني تحقيق الحد الأقصى من الإشباع لاحتياجات الجماهير في ظل العدل والمساواة وتكافؤ الفرص، والعمل على تعزيز ثقافة التسامح وإشاعة ثقافة التعايش وروح التعاون بين أطراف المجتمع. ومن جملة التعاريف الكثيرة التي حظي بها مصطلح الأمن الاجتماعي أنه عبارة عن: "مجموعة من التدابير الحمائية التي تؤهل الإنسان للحصول على احتياجاته الأساسية من المأكل والمسكن والملبس والعلاج، وخاصة في الظروف التي يواجه فيها كارثة طبيعية أو ضائقة اقتصادية، وضمان الحد الأدنى لمستوى المعيشة" (رمزي، 1988، صفحة 254).

3. مركزية السلم الاجتماعي في القرآن الكريم

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن لفظ السلم ومشتقاته قد تكرر فيما يزيد على مائة وأربعين موضعا في مقابل لفظ الحرب ومشتقاته الذي

انحصر في ست آيات فقط، حيث ورد السلم بصيغة الاسم في مائة واثنى عشر موضعاً، وورد بصيغة الفعل في ثمانية وعشرين موضعاً، وحمل معان مختلفة تتراوح بين السلامة من الشر، والثناء الحسن، والتحية المتبادلة بين الناس، وخلوص الشيء من كل ما يشوبه (لفظ (السلم) في القرآن الكريم، 2011) من النقائص والعيوب وغيرها. كما ورد مصطلح الأمن باعتباره مرادفاً للسلم في ثمانية وأربعين موضعاً موزعة على أربع وعشرين سورة، وكثرة ورود هذين اللفظين يوجّه الأفكار والأنظار إلى أن مبدأ السلم وحالة الأمن في الإسلام يحتلان حيزاً هاماً في منظومته القيمية والفكرية.

ومن ضمن المعاني الكبرى التي تضمنتها هذه الآيات الكريمة حديثها عن السلم الاجتماعي الذي ينعم به الناس في مدنهم وحواضرهم، بحيث يطمئنون على أنفسهم وأموالهم وتجارتهم وزروعهم وأسفارهم، ويقبلون على مواردهم الاقتصادية بالاستثمار والتنمية والتوسع في المشاريع المختلفة. وقد صوّر لنا القرآن حالة أصحاب الحجر الذين بلغوا شأواً بعيداً في الحضارة، وتوفرت لديهم كل وسائل الحياة المترفة، وتفننوا في ابتكار ألوان الرفاهية، وابتدع أساليب التمتع، ونوّه إلى أنهم كانوا يتمتعون بحالة من السلم العام والأمن جعلهم يتوسعون في الاستمتاع بالكماليات حتى إنهم التفتوا إلى الجبال وصاروا ينتحون فيها قصورهم مبالغتهم في الترف، وإظهاراً للعظمة والقوة. قال تعالى: ﴿أَتُركُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْجُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ (سورة الشعراء، 146-149).

كما حدثنا عن سبأ، ووصف لنا حالة السلم الاجتماعي الذي تولّد عنه الرخاء الاقتصادي الذي كانوا يتقلبون فيه بما أنعم الله عليهم من الزروع والثمار والمياه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ

رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةً طَيِّبَةً رَبُّ غُفُورٌ (سورة سبأ، 15)، وبَيَّنَّ لَنَا أَنْ مِنْ أَعْظَمِ أسباب هذا الرخاء، أن الطرق التي كانوا يرتادونها لتصدير منتجاتهم وجلب ما تحتاجه بلادهم من السلع والمواد كانت آمنة، تغدو فيها قوافلهم وتروح بسلام، محمَّلة بالبضائع والأموال فتصل سالمة غانمة: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُورَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لَيَالِيً وَآيَاتًا أَمِينٍ﴾ (سورة سبأ، 18)، يقول سيد قطب في تفسير هذه الآية: "وقيل كان المسافر يخرج من قرية فيدخل أخرى قبل حلول الظلام، فكان السفر فيها محدود المسافات، مأمونا على المسافرين، كما كانت الراحة موفورة لتقارب المنازل، وتقارب المحطات في الطريق" (قطب، 1978، صفحة 2901)، وفيها دليل على أن السلم الاجتماعي شرط ضروري لحصول النمو الاقتصادي، والوفرة الغذائية، والرفي الحضاري.

وعندما تعرض القرآن لحالة المجتمع الإسلامي، وجَّه نداءً عاما إلى المؤمنين ليكون السلم هو مبدأ حياتهم وغايتهم في كل ما يأخذون ويدعون. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة البقرة، 208)، أي أدخلوا في السلم الشامل الذي هو دوام الأمر الصالح والعمل النافع والقلب السالم والنفس الطيبة مع الله أولا ومع الخلق ثانيا، وهذه المعاني تشمل الصلح والمصالحة، والسلم والمسامحة، والعفو والمسامحة.

وهذه الآية الكريمة تنبئنا أن ركيزة السلم الاجتماعي وعموده الذي يقوم عليه هو الوحدة بين أبنائه، وتكاتفهم وتعاونهم في السراء والضراء، ومراعاة مصالح بعضهم بعضا بما يجعلهم لحمة متماسكة، لذلك كان التركيز في الإسلام على وحدة الكلمة والنهي الشديد عن التفرق، والدعوة الحارة إلى اعتناق السلم كلما دعا داعيه، وهو ما يشير إليه في بلاغة وإيجاز قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ

اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (سورة النساء، 103)، حيث التمسك بحبل الله الذي يهدي لأقوم الطرق، ويجمع المسلمين على منهج واحد، ويوجه طاقاتهم باتجاه واضح، ويكتل جهودهم لخدمة هدف معين، فتتوحد صفوفهم، وتتقارب وجهات نظرهم، وتذوب الخلافات الكبيرة التي تفرق الصفوف وتمزق الشمل، وتنسجم خطواتهم في جو من النظام التام والسلم العام الذي يحفظ على المجتمع إنجازاته، ويهيئه لأن يغير التاريخ ويبني الحضارة.

وهذا الوئام والانسجام إنما يتأتى من قوة العلاقات الاجتماعية التي تربط بين أبناء المجتمع الواحد، لذلك كان أهم مقياس لتقويم أي مجتمع هو تشخيص حالة العلاقات الداخلية فيه والتي يعبر عنها مالك بن نبي بمصطلح "نسيج العلاقات الاجتماعية"، فسلامتها دليل على صحة المجتمع وأهليته للنهوض والتطور، واهتراؤها وتمزقها دليل تخلفه وعدم قدرته على الإنجاز. يقول مالك بن نبي: "والمعلوم أن أول عمل يؤديه مجتمع معين في طريق تغيير نفسه مشروط باكتمال هذه الشبكة من العلاقات. وعلى هذا نستطيع أن نقرر أن شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده" (بن نبي، 1986، صفحة 26). وهذه الشبكة لا تكتمل وتشتد خيوطها إلا في ظل السلم الاجتماعي الذي يشيع جو السلام والتعايش بين مختلف أطياف المجتمع، ويساعد على الانصهار الاجتماعي، فيصبح من السهل توجيه الطاقات لدفع عجلة التنمية، والسير قدما في سبيل الرقي الحضاري، والرخاء الاقتصادي، والاستقرار السياسي.

ذلك أن السلم الاجتماعي عامل أساس في استقرار المجتمع وشيوع الأمن فيه، فإذا فُقدت سادت المجتمع حالة من الفوضى والاضطراب وغلبت على أبنائه حالة الخصام والاحتراب، وسعى كل واحد إلى إيقاع الضرر بمن يخالفه، فتضيع المصالح العامة، ويحس كل طرف أنه مستهدف في وجوده ومصالحه، فترتفع وتيرة

الصراع، ويتجه نحو البطش والانتقام وإحراز أكبر قدر من الغلبة والسيطرة (الصفار، 2002، صفحة 27)، وهي الحالة البائسة التي عبرت عنها الآية الكريمة أبلغ تعبير في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (سورة الأنفال، 46)، أي "لا تنازعوا تنازعا يوجب تشتت القلوب وتفرقها" (بن ناصر السعدي، 2002، صفحة 323)، في تحذير من مغبة التنازع الذي يهدد السلم الاجتماعي وينذر بذهاب الريح الذي يحيل إلى حالة التشطي الذي يصيب المجتمع عندما ينفجر من الداخل وينقسم إلى فصائل متصارعة بسبب تلوث الجو الاجتماعي العام بأفات الظلم والتمييز والإقصاء.

وقد أخبرنا القرآن الكريم أن ظلم الناس لأنفسهم بالإعراض عن الحق والهدى وبالتالي ظلمهم لغيرهم طلبا للنفوذ وتحقيق المصالح الشخصية قد كان سببا رئيسا في تمزق كياناتهم وذهاب قوتهم، إذ أن غياب السلم الاجتماعي الذي يكفل الحقوق ويصون الحريات قد حوّل المجتمع إلى غابة من الفوضى يأكل فيها القويّ الضعيف، وتُهدّر فيها كرامة الإنسان، وتُستباح حرّماته، فرماهم التاريخ على هامش الحياة وأصبحوا أثرا بعد عين، وعبرة لمن أراد أن يعتبر. قال تعالى: ﴿وظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ (سورة سبأ، 19).

4. الأبعاد الوظيفية للسلم الاجتماعي في القرآن الكريم

إن هذا السلم الاجتماعي الذي تضافرت الآيات الكريمة على التنويه به، واعتباره مرتكزا قويا من مرتكزات الحياة السليمة، وعاملا مهما من عوامل الاستخلاف وال عمران البشري له أبعاده وامتداداته الوظيفية في القرآن الكريم، فهو يرفعه إلى درجة الفريضة الشرعية، ويعترف به حاجة حياتية فطرية مشروعة، ويجعله شرطا أساسيا لبناء الحضارة، ويعتبره حقا إنسانيا يتجاوز

الأديان والأعراق والمذاهب. وإن غياب أي بعد من هذه الأبعاد يؤدي إلى انعدام أو ضعف الأمن كله. وفيما يلي محاولة للإحاطة بهذه الأبعاد وامتداداتها المختلفة:

1.4 السلم الاجتماعي واجب شرعي

إن المهمة الأساسية التي خُلق الإنسان من أجلها هي أداء أمانة الاستخلاف في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (سورة البقرة، 29)، ومن مقتضيات هذه الأمانة تمكين الإنسان من مقدرات الأرض وناصية الكون، وتسخير له ليكون سيذا عليه، مالكا لمفاتيحه، متصرفا في شؤونه، مستغلا لخيراتاه، منفذا فيه إرادته بالتعمير، والتغيير، والترقية والتطوير، وهو ما يمكن أن نطلق عليه بناء الحضارة. فليس الاستخلاف إذن مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم: "إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخلقة أكرمها الله. إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة، لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان!" (قطب، في ظلال القرآن. ج 4، 1978، صفحة 2529).

وهذا الاستخلاف الذي يتطلب السير في مناكب الأرض لتعميرها بالخير والصالح يحتاج إلى بيئة آمنة يكون الإنسان فيها مكتفيا في حاجاته الضرورية التي تؤهله لأن يوظف طاقاته في هذا السبيل. لذلك تضافرت نصوص الوحي لتؤكد على وجوب توفير الأمن على المستوى الفردي والاجتماعي ليكون معينا على أداء هذه الأمانة، ومنها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (سورة البقرة، 208)، فالآية تحمل

في طياتها وجوب الدخول في السلم استنادا إلى فعل الأمر (ادخلوا). وقد ذهب أغلب المفسرين إلى أن السلم هو المسالمة والصلح وترك الحرب: "وتكون بمعنى الصلح، وترك الحرب والتهارج، ويكون الخطاب للمسلمين عامة بترك التهارج بينهم والتقاتل" (أبو بكر الجزائري، 1990، صفحة 104)، بينما يرى سيد قطب أنها دعوة للمسلم ليتصالح مع نفسه ومع غيره ومع الوجود كله حتى لا يبقى في نفسه مكان لشر أو عداوة، وتغلب عليه صفة الخيرية فلا يعمل إلا ما يحقق هذا السلم في كل مجالات نشاطه: "والمسلم حين يستجيب هذه الاستجابة يدخل في عالم كله سلم وكله سلام. عالم كله ثقة واطمئنان، وكله رضى واستقرار. لا حيرة ولا قلق، ولا شرود ولا ضلال. سلام مع النفس والضمير. سلام مع العقل والمنطق. سلام مع الناس والأحياء. سلام مع الوجود كله ومع كل موجود. سلام يرف في حنايا السريرة. وسلام يظلل الحياة والمجتمع. سلام في الأرض وسلام في السماء (قطب، في ظلال القرآن. ج 1، 1978، صفحة 207)".

والمستقرئ للقرآن الكريم يجد إلى جانب هذا الخطاب المباشر حشدا كبيرا من الآيات الكريمة التي توجّه إلى تحقيق السلم الاجتماعي بأسلوب غير مباشر وتجعله في مقام الفريضة الشرعية كما في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (سورة المائدة، 2)، فالأمر بالتعاون على البر والتقوى في هذه الآية الكريمة يقتضي الوجوب أيضا. يقول السعدي: "والبر هو اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة والباطنة من حقوق الله وحقوق آدميين، والتقوى في هذه الآية اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة

غيره من إخوانه المؤمنين عليها، بكل قول يبعث عليها وينشط لها، وبكل فعل كذلك" (بن ناصر السعدي، 2002، صفحة 219).

فالبر والتقوى كلمتان جامعتان تتضمنان الخير كله وتوحيان بما للجهود الجماعية من دور في تحقيق الانسجام والتناغم بين أفراد المجتمع، الأمر الذي يفضي إلى شيوع السلم، واستقرار الأوضاع، وغلبة الخير على توجهات الناس وأعمالهم: "أما الأمر بالتعاون على البر والتقوى فهو من أركان الهداية الاجتماعية في القرآن، لأنه يوجب على الناس إيجاباً دينياً أن يعين بعضهم بعضاً على كل عمل من أعمال البر التي تنفع الناس أفراداً وأقواماً في دينهم ودنياهم، وكل عمل من أعمال التقوى التي يدفعون بها المفسد والمضار عن أنفسهم، فجمع بذلك بين التحلية والتخلية، ولكنه قدم التحلية بالبر، وأكد هذا الأمر بالنهي عن ضده، وهو التعاون على الإثم والمعاصي وكل ما يعوق عن البر والخير، وعلى العدوان الذي يغري الناس بعضهم ببعض، ويجعلهم أعداء متباغضين يتربص بعضهم الدوائر ببعض" (بن علي رضا، 1990، صفحة 108)، والتزام المسلمين بهذا التوجيه الرباني يرسخ معاني الخير في النفوس، ويشد روابط الألفة والتضامن بينهم، ويعزز فرص التقارب بينهم، ويجعل التعاون على البر والتقوى ثقافة سائدة بين الجميع: "وفائدة التعاون تيسير العمل، وتوفير المصالح، وإظهار الاتحاد والتناصر، حتى يصبح ذلك خلقاً للأمة" (بن عاشور، 1984، صفحة 88)، وكل ذلك يؤسس لقيم السلم الاجتماعي.

ويعضد هذه الدعوة إلى التعاون على البر والتقوى لتقوية شبكة العلاقات الاجتماعية والقضاء على كل ما من شأنه أن يصيبها بالخلل أو الاضطراب، ويزرع بذور الفرقة والصراع بين أفراد المجتمع، كثير من الآيات التي تسد كل واحدة منها ثغرة من الثغرات التي قد يتسلل منها ما يفسد على الناس أمنهم، ويهدد سلمهم الاجتماعي كآليات التي تعصم الدماء إلا بحقها: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ

إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (سورة الأنعام، 181)، وتلك التي تعصم الأموال من النهب والسلب والاعتصاب: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ (سورة البقرة، 108)، وتلك التي تعصم الأعراض من القذف والتشهير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ (سورة الحجرات، 11)، وغيرها من الآيات الكثيرة التي تحيط حقوق الإنسان الأساسية بسياج محكم من التشريعات والنواهي والزواجر.

ويجمعها كلها قوله عز وجل: ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (سورة آل عمران، 103) بكل ما تحمل عبارة الاعتصام بالله من معاني الوحدة والتآلف والتكاتف والتضامن والتراحم والتواصل المثمر بما يحقق للمجتمع أعلى درجات السلم، ويفعل طاقات أبنائه لتتجه نحو البناء، وقد جاءت هي أيضا بصيغة الأمر لتجعل من تحقيق السلم الاجتماعي مسؤولية مقدسة يتحملها أبناء المجتمع الواحد ويسعون إلى تحقيقها باعتبارها فريضة شرعية تؤهلهم لأن يكونوا في مستوى مهمة الاستخلاف التي أناطهم الله بها، ومنها يعلم المسلمون أن إقامة الدين وتحقيق مراد الله في الأرض لا يتم إلا بصلاح أمر الدنيا واستقامة العمران الإنساني، ولعل ذلك ما قصده محمد الغزالي حينما قال: "لقد رأيت - بعد تجارب عدة - أنني لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة الجو الملائم لغرس العقائد العظيمة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة. إنه من العسير جداً أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس التقوى إذا كان جسده عارياً، إنه يجب أن يؤمن على ضروراته التي تقيم أوده كإنسان ثم تنتظر أن تستمسك في نفسه مبادئ الإيمان" (الغزالي، د ت، الصفحات 61-62).

وهي المعاني التي تضمنها الحديث القدسي الذي يحرم الله فيه الظلم بكل أشكاله وينذر فيه الظالمين بسوء العقاب لما فيه من العدوان الذي يهدد السلم الاجتماعي، ويقطع أواصر المودة والتآخي بين أفراد المجتمع، ويفسح المجال للأحقاد والضغائن لتمزق الأرحام والأواصر. عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ " يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا ، فَلَا تَظَالُمُوا"(مسلم بن الحجاج، 1972، صفحة الحديث: 4680).

2.4 السلم الاجتماعي مطلب حياتي

وكما أن السلم الاجتماعي فريضة شرعية رتب عليها الله سبحانه وتعالى صلاح الدين الذي تستقيم به حياة الإنسان فوق الأرض فهو أيضاً حاجة حياتية مركوزة في فطرة الإنسان لا يستغني عنها. فبغض النظر عن الأديان والأجناس والقوميات فإن كل إنسان على وجه الأرض يتمنى أن يعيش آمناً، ويكره الخوف الذي يزرع في داخله القلق والاضطراب ويجعل حياته بائسة يتربص في كل لحظة فيها خطراً يهدده. هذه الحالة تشل تفكيره وتنغص عليه عيشه وتعطل مسيرته العملية وتضيّق عليه الآفاق الواسعة، وتقتل طموحاته في داخله.

لذلك كان موضوع توفير السلم العام فكرة مقدسة عند جميع الأمم والشعوب التي تسن القوانين وتضع التشريعات لتحمي حياة أفرادها ومجتمعاتها من كل ما يشكل خطراً عليهم، لأن المجتمع لا يكتسب صفته الحقيقية في كونه شكلاً اجتماعياً للقاء الأفراد وتعاونهم وارتباطهم بعلاقات القرابة والمصالح المتبادلة إلا إذا توفر فيه الأمن والسلام الذي يتيح لهم مساحة واسعة من التواصل والتفاعل المثمر، بينما إذا فُقد فإن المجتمع يتحول إلى كتل متفرقة تتصارع فيما بينها يحكمها النزاع والخصام، وتقودها الضغائن والأحقاد، وتتوقف فيها كل مبادرات التنمية والتطوير، وتسعى كل فئة فيها إلى إلحاق الأذى بغيرها لحماية نفسها، ومتى تحوّل الرابط الذي يجمع بين أفراد المجتمع من حالة

التعاون والتكافل إلى حالة الإقصاء والإلغاء ضاع السلم الاجتماعي ونبئت فيه بذور الفرقة والتمزق.

ففي ظلال السلم الاجتماعي تتكون شبكة العلاقات الاجتماعية السليمة التي تعطي للمجتمع قيمته الحقيقية وتجعله قوة مؤثرة، وتوحد أبنائه في صعيد واحد، وتجمعهم في نسق فكري متجانس، وتفتح أمامهم آفاق الإبداع، وفرص التغيير والتجديد والتطوير، وكلما ارتخت هذه العلاقات وأصابها الوهن نتيجة غياب السلم، وضعفت معدلات النشاط المشترك بين أبنائها، وتناقصت أو انتفت أشكال التعاون والتكافل بينهم فإن ذلك نذير بمرض المجتمع وفقدانه لمبررات وجوده: "إن صفاء أجواء المجتمع من العداوات والصراعات، يجعله مهيئاً للتعاون والانطلاق، ويحفظ قوته من الهدر والضياع، لذلك كان من الطبيعي أن تسعى القوى المناوئة لأي مجتمع من أجل تمزيق وحدته وإثارة العداوات بين فئاته" (الصفار، 2002، صفحة 37).

والبديل لحالة السلم الاجتماعي الذي يعد ضرورة حياتية هو الاحتراب والتآكل الداخلي الذي يفضي إلى تمزق المجتمع وتهالكه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (سورة الأنفال، 46)، وفي تفسير هذه الآية يقول ابن عاشور: "وأما النهي عن التنازع فهو يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك: بالتفاهم، والتشاور، ومراجعة بعضهم بعضاً، حتى يصدروا عن رأي واحد... والفشل: انحطاط القوة... وإنما كان التنازع مفضياً إلى الفشل لأنه يثير التغاضب ويزيل التعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتقاء بعضهم بعضاً، وتوقع عدم إلقاء النصير عند مآزق القتال، فيصرف الأمة عن التوجه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم" (ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 11، 1984، صفحة 31)، وهذا التنازع الداخلي قد

يفضي. إذا طال أمدّه. إلى أسوأ ما يصيب المجتمعات وهي الحرب الأهلية التي تعدّ النقيض الصارخ للسلم الاجتماعي، ومن أسوأ ما يترتب عنها استنزاف موارد المجتمع وتبديد ثرواته، وتدمير بناه التحتية، ونزيف عقوله، وشلل الاقتصاد الوطني وتمزق شبكة العلاقات الاجتماعية بما يشيع بين الناس من أحقاد وضغائن وثورات، وما تفرضه حالة العنف والاحتراب من تشريد وتفريق بين الأهل والأحبة واضطرارهم للهجرة فراراً بأنفسهم وتفريقهم في البلدان، بالإضافة إلى إضعاف سيادة الدولة على أراضيها وإغراء القوى المعادية بها: "إن الحرب الأهلية أو الداخلية في المجتمع هي الشر المطلق، وذلك أيّاً كانت الأهداف أو القضية التي تتلبس بها هذه الحرب أو تسعى للدفاع عنها" (<https://bit.ly/2SNN4mn>، د ت).

وقد أدرك إبراهيم عليه السلام القيمة الكبرى التي يكتسبها الأمن في حياة الناس وأنه حاجة فطرية تطلبها النفس حتى تحس في ظله بالارتياح والسكينة، فطلب من ربه عز وجل أن يظلل البلد الذي بنى فيه بيته الحرام بالأمن: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ (سورة إبراهيم، 36)، فهو أول مطلب قدمه بين يدي ربه، أن يكون البلد آمناً، ثم سأل ربه أن يسوق إلى زوجته وابنه الوحيدين في ذلك القفار من جموع الناس من يجاورهم في الحرم ليستأنسوا بهم ويكونوا مجتمعاً إنسانياً يحس فيه الفرد بمشاعر الانتماء، ثم طلب لهم الرزق الوفير بما يحملهم على البقاء في ذلك الوادي الذي لا زرع فيه ولا ضرع: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (سورة إبراهيم، 37)، فنعمة الأمن التي تقابلها نعمة السلم الاجتماعي هي جماع الأمر كله، لأن الإنسان لا يطيب له مقام

ولا طعام إذا خيم عليه الخوف وغزا قلبه الاضطراب وترقب الخطر الذي يهدده في ضرورياته الحياتية.

3.4 السلم الاجتماعي ضرورة حضارية

الحضارة إنجاز إنساني متميز يدل على تفرد الإنسان في هذا الكون بالتغيير والتطوير والارتقاء، وهي صورة واضحة للمكات الإنسان وقدراته العقلية والنفسية والجسمية حينما تتفاعل مع الطبيعة بكل مكوناتها فتنتج صوراً شتى من النشاط الفكري والإنتاج المادي، وهو ما يمكن أن نعبر عنه بقولنا أن الحضارة هي: تأثير الذكاء الإنساني على الطبيعة أو العالم الخارجي، وفن العمل والسيطرة وصناعة الأشياء صناعة راقية دقيقة، أو هي الخلق المستمر للذات والتغيير المستمر للعالم (بيجوفيتش، 1994، الصفحات 94-95).

وقيام الحضارات وازدهارها وانتعاش العلوم والمعارف فيها يحتاج بشكل بديهي إلى بيئة خاصة تحتضن هذه الحركة وتحافظ على منجزاتها، وتمدها بأسباب البقاء وعوامل التطور، ويأتي السلم الاجتماعي على رأسها جميعاً، فهو شرط أساس لكل حضارة، ففي أجوائه يحصل الناس على حقوقهم الأساسية في العيش الكريم، وتنمو العقول نمواً سليماً بدون عوائق، ويتهيأ المجتمع للانفتاح على آفاق العلوم، والارتقاء في درجات الحضرة، وتنفتح أبواب الإبداع والابتكار على مصراعها أمام أصحاب المواهب المتنوعة والعبقريات الفكرية والفنية، ويصبح المجتمع كله عبارة عن خلية من النشاط المتزايد الذي لا يتوقف: "إن الإنسان لا يجد لحضارته معنى ومبرراً إلا إذا استقر في مكان يفلح تربته، ويخزن فيه الزاد ليوم قد لا يجد فيه مورداً لطعامه. في هذه الدائرة الضيقة من الطمأنينة، والتي هي مورد محقق من ماء وطعام ترى الإنسان يبني لنفسه الدور والمعابد والمدارس، ويخترع الآلات التي تعينه على الإنتاج، ويستأنس الحيوان، ثم

يسيطر على نفسه آخر الأمر، فيتعلم كيف يعمل في نظام واطراد، وكيف يزداد قدرة على نقل تراث الإنسانية من علم وأخلاق نقلاً أميناً" (ديورانت، 1988، صفحة 18).

وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة حينما حدثنا عن الحضارات البائدة التي سارت أشواطاً بعيدة في مضمار التقدم والرقى وبلغت فيهما شأواً بعيداً، وأنبأتنا الآيات الكريمة أن هذه المظاهر الحضارية قد ولدت في بيئة آمنة. قال تعالى: ﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْجُونَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي هُنَا بِيُوتًا فَارِهِينَ﴾ (سورة الشعراء، 146-149)، فقد صور لنا القرآن الكريم حالة الرفاهية العالية التي كانت تعيش فيها ثمود من خصوبة في الأرض، ومنتجات زراعية وفيرة تكفي حاجاتهم وتزيد، ومن تفنن في العمران حتى أنهم بعد أن استنفذوا الجهد في بناء القصور في الأراضي المنبسطة اتجهوا إلى الجبال ينحتون منها بيوتاً مبالغاً منهم في الكماليات وإظهاراً للقوة والجبروت: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالِ الَّتِي هُنَا بِيُوتًا﴾ (سورة الأعراف، 74)، وقد جاء في تفسير هذه الآية أنهم: "كانوا يسكنون الجبال في الشتاء لما في البيوت المنحوتة فيها من القوة التي لا تؤثر فيها الأمطار والعواصف، ويسكنون السهول في سائر الفصول لأجل الزراعة والعمل" (بن علي رضا، تفسير المنار. ج 8، 1990، صفحة 448)، وهو دليل على أنهم كانوا يعيشون: "حضارة عمرانية واضحة المعالم" (قطب، في ظلال القرآن. ج 3، 1978، صفحة 1313). وإنما استطاعوا أن يحققوا هذه الإنجازات جميعاً لأنهم كانوا يعيشون في أمن مجتمعي تام، فهم في أمن اقتصادي مكتفون في الغذاء، وفي أمن سياسي وعسكري فلا يجرؤ أحد على مهاجمتهم، لذلك وظفوا طاقاتهم كلها في بناء الحضارة والتفنن في العمران.

ويضرب لنا القرآن مثلاً آخر للتدليل على أن الأمن ضرورة حضارية من حالة حضارة سبأ التي كانت تحيا في بحبوحة من العيش في ظل وجود جنتين عن يمين وشمال وبلدة طيبة التربة، طيبة الهواء، غزيرة المياه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (سورة سبأ، 15)، وقد عقب سيد قطب على هذه الآية قائلاً: "وكانوا في أرض مخصبة ما تزال منها بقية إلى اليوم. وقد ارتقوا في سلم الحضارة حتى تحكموا في مياه الأمطار الغزيرة التي تأتيهم من البحر في الجنوب والشرق، فأقاموا خزاناً طبيعياً يتألف جانباه من جبلين، وجعلوا على فم الوادي بينهما سداً به عيون تفتح وتغلق، وخنزوا الماء بكميات عظيمة وراء السد، وتحكموا فيها وفق حاجتهم. فكان لهم من هذا مورد مائي عظيم" (قطب، في ظلال القرآن، ج 5، 1978، صفحة 2900)، وجمعوا إلى هذه الوفرة في الغذاء تجارة واسعة مزدهرة كثيرة الأرباح لما تتميز بها طرقها من الأمن والسلام: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُورَى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ (سورة سبأ، 18).

وعندما وعد الله المؤمنين بالاستخلاف في الأرض والتمكين لهم فيها جعل من بين أهم الشروط التي يوفرها لهم ليتمكنوا من أداء أمانة الاستخلاف على وجهها الصحيح التام أن يستبدل الخوف الذي يعيشونه في زمن الاستضعاف أمناً وسلاماً تذهب معه مشاعر الرعب والتوجس، وتخليقها أجواء أمانة تطمئن فيها القلوب وترتاح النفوس وتنشط الإرادات في نشر الخير وإعمار الأرض بالصالح: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (سورة النور، 55). قال الربيع بن أنس عن أبي العالية في هذه الآية:

"كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده، وإلى عبادته وحده بلا شريك له، سرا وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال، حتى أمروا بعد الهجرة إلى المدينة، فقدموها، فأمرهم الله بالقتال، فكانوا بها خائفين، يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح، فصبروا على ذلك ما شاء الله، ثم إن رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله، أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عن السلاح؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم ليست فيه حديدة" (بن جرير الطبري، 2001، صفحة 348).

وهذا السلم هو الذي يهيئ المناخ المناسب لبناء الحضارة وإقامة العمران البشري الذي يسعد الإنسانية لأنه قائم على الوحي السماوي الذي يضمن الحقوق ويأمر بالعدل: "فقد وعدهم الله إذن أن يستخلفهم في الأرض، وأن يجعل دينهم الذي ارتضى لهم هو الذي يهيمن على الأرض، ودينهم يأمر بالإصلاح، ويأمر بالعدل، ويأمر بالاستعلاء على شهوات الأرض، ويأمر بعمارة هذه الأرض، والارتفاع بكل ما أودعها الله من ثروة، ومن رصيد، ومن طاقة، مع التوجه بكل نشاط فيها إلى الله" (قطب، في ظلال القرآن. ج 4، 1978، صفحة 2529). وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المعنى حينما ربط انتصار الإسلام بشيوع الأمن واطمئنان الناس وسيرهم في الأرض يمارسون نشاطاتهم الاجتماعية والاقتصادية وهم آمنون لا يفرعونهم قطاع الطرق، ولا يرههم اللصوص، ولا يخافون ظلم السلطان ولا عدوان حاشيته وجنوده: {وَاللَّهُ لَيَتَمَنَّى هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّكَبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ} (بن إسماعيل البخاري، 1987، صفحة الحديث: 3612)، ومع الأمن والسلم يأتي الرخاء الاقتصادي، والاستقرار السياسي، والانتعاش الثقافي، والتطور الفكري وكل ما تتطلبه الحضارة من مظاهر الرقي والازدهار.

وهذه مسلّمة بديهية اتفقت عليها الشرائع والعقول، فالخائف لا يستطيع أن يفكر تفكيراً سليماً، ولا يستطيع أن يخطط لعمل مفيد، ولا يستطيع أن يضع المشاريع والبرامج في بيئة يغلب عليها الاضطراب وتسودها الفوضى، حيث لا يأمن على نفسه ولا على أهله ولا على ماله، ولا يحصل. في أغلب الأحوال. على حقوقه الطبيعية التي تغنيه عن الكد والكدح للبقاء على قيد الحياة ولو في أدنى مستويات المعيشة. لذلك كله كان السلم الاجتماعي ضرورة حضارية، إذ في ظلاله تنتعش المواهب وتتفجر العبقريات ويسري نهر الإبداع والابتكار في المجتمع فتستيقظ فيه كل الطاقات وتشكّل فيه كل المهارات ويشهد قفزات نوعية في التقدم والرقى في جميع مناحي حياته.

4.4 السلم الاجتماعي حاجة إنسانية

إن السلم الاجتماعي بكل ما يحمل من علامات الطمأنينة والاستقرار، وبكل ما يترتب عليه من حركة حضارية مثمرة، وما تجنيه المجتمعات في ظلاله من أنواع المكتسبات الفكرية والمادية، وما يضيف على الوجود البشري من الحركة الإيجابية والتفاعل الحيّ، قد جعله الله فريضة شرعية وربط وجوده بقيام الدين على أصوله لكنه لم يحصره في مجتمعات المسلمين، بل عدّه مطلباً إنسانياً عاماً يحكم طبيعة العلاقات التي تربط المجتمعات الإسلامية بباقي المجتمعات الإنسانية التي تتعايش معها فوق الأرض على اختلاف مللها ونحلها وأجناسها وأعراقها ولغاتها فقال تعالى موجّهاً خطابه للناس جميعاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات، 13).

فالآية تشتمل على نداء عام للناس جميعاً: "يا أيها المختلفون أجناساً وألواناً، المتفرون شعوباً وقبائل، إنكم من أصل واحد فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا

تتخاصموا ولا تذهبوا بددا. والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم من ذكر وأنثى، وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبا وقبائل. إنها ليست التناحر والخصام، إنما هي التعارف والوئام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات، وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله" (قطب، في ظلال القرآن. ج 6، 1978، صفحة 3348).

وباستقراءنا للمعاني التي تحملها الآية الكريمة يتبين لنا نوعية العلاقة التي يجب أن تسود بين الناس جميعا في الدائرة الإنسانية الكبرى التي تحملها عبارة (يَا أَيُّهَا النَّاسُ)، والتي تحيل إلى خطاب إنساني عالمي يفرضه تساوي أبناء آدم جميعا في الكرامة الإنسانية، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه العلاقة بلفظ (التعارف) الذي يعني في جملة ما يعني الاعتراف بالآخر، والإقرار باختلافه لأن هذا الاختلاف سنة من سنن الله في كونه لا يجوز التعدي عليها والسعي لجعل البشرية كلها نسخة واحدة، وقبول هذا التنوع في العقائد واللغات والأعراق ومذّج جسور التواصل والتفاعل مع أصحابه لترسيخ السلم الاجتماعي وتعزيزه ليشمل أكبر مساحة ممكنة في الأرض بربط الشعوب والقبائل جميعا برابطة التعارف. والتعارف. استنادا إلى مفهومه اللغوي والاصطلاحي: "تفاعلٌ في المعروف أي إقامة العلاقات بين الناس بالمعروف وبالحسن ليتم إعمار الأرض واكتشاف كنوزها وخيراتها وتبادل منافعها؛ بأن تكون بيتاً تعارفاً تالفاً تعاونياً مشتركاً عامراً آمناً حاضناً للجميع" (جاد، 2016).

والتعارف يفيد أيضا تبادل المعرفة، وهذا لا يتم إلا في جو آمن مطمئن، لأن المعرفة نور، والنور لا ينتقل عبر الحديد والنار، ويستلزم أيضا الحوار والاستماع المتبادل للأفكار والتصورات، ويستبعد الصدام والإفناء للذات يلغيان عملية

التعارف، كما يستلزم أيضا: "تبادل العلوم والمعارف دون احتكار لها، والتعاون المشترك على فضّ مغاليق الحياة والكون المادية والمعنوية، وارتداد آفاق البحث والتجريب" (جاد، 2016).

ففي الوقت الذي لا يحتمل فيه الصراع إلا معنى واحدا هو القضاء على الآخر وإفناؤه، فإن التعاون يحتمل معان عديدة، ويوجي بالحيوية والحركة والنمو وانطلاق الطاقات للإبداع، واستغلال ثروات الأرض، والتسابق في امتلاكها، والتنافس في حيازتها. فقد قدّر الله تنوع البشر واختلافهم وتعدد توجهاتهم ليتنافسوا في اكتساب خيرات الأرض، وليفضي بهم نشاطهم الزاخر في هذا المجال إلى إعمارها واستخراج كنوزها والتمتع بطيباتها: "هنا تبرز حكمة الله العليا في الأرض من اصطراع القوى، وتنافس الطاقات، وانطلاق السعي في تيار الحياة المتدفق، وهنا تتكشف على مد البصر ساحة الحياة المترامية الأطراف، تموج بالناس في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات... إلى الخير والصالح والنماء... لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض. ولولا أن في طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة، لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع، فتنفض عنها الكسل والخمول، وتستجيش ما فيها من مكنونات مذكورة، وتظل أبدا يقظة عاملة، مستنبطة لذخائر الأرض، مستخدمة قواها وأسرارها الدفينة، وفي النهاية يكون الصالح والخير والنماء" (قطب، في ظلال القرآن. ج 1، 1978، صفحة 270).

ومن ثمّ فإن الحروب القائمة بين شعوب الأرض وأممها ظاهرة مرضية، وآفة خطيرة تعطل سيرورة عملية التعارف، وتعرقل سير الإنسانية نحو التآلف والتعاون، وتمثل تهديدا مباشرا للسلم الاجتماعي الذي يتعيّن أن يسود في جميع

المجتمعات البشرية حتى يحصل الجميع على القدر الكافي من الأمان الذي تستقيم به حياتهم.

وقد أدركت البشرية بعد قرون عديدة من صدور هذا النداء عن رب العالمين، أن التعارف هو أسلم سبيل لها لتظل الحياة قائمة على وجه الأرض. فبعد أن عرفت التقنية تطورا مذهلا وغير مسبوق في مجال الاتصالات والمواصلات تقاربت شعوب العالم وأممه تقاربا شديدا عبّر عنه المختصون بتحوّل العالم إلى قرية صغيرة، ونشطت حركة التنقل بين البلدان والقارات، وتشابكت العلاقات الدولية وتعقدت التبادلات الاقتصادية، وطفّت على السطح مشكلات الهجرة واحتكاك الثقافات والحضارات والهويات والانتماءات العرقية بحيث أصبحت تنذر بانفجار وشيك يقود إلى صراع قد يفنى فيه الجميع، فارتفعت أصوات العقلاء في جميع أصقاع الأرض يطالبون بنشر ثقافة التسامح والاعتراف بالآخر، وإفساح المجال للتعارف بدل التصادم، والعمل على إحلال الأمن والسلام بين جميع سكان الأرض لينجو الجميع، وإلا فإن الدمار مصيرهم المحتوم.

5. خاتمة

وننتهي في ختام هذه الدراسة إلى أن السلم الاجتماعي له مفهومه الواضح والدقيق والصريح الذي نستقيه من مجموع الآيات الكريمة التي تؤسس له، وأن هناك عددا من المصطلحات التي تتقاطع معه في المعاني والدلالات منها: الأمن الاجتماعي، والسلم الأهلي وغيرها، وأنه مطلب عزيز من مطالب الإنسان نظرا لما له من أثر طيب في استقرار النفوس وطمأنينتها، وفي حفظ الحقوق واستتباب الأمن العام، وفي إبعاد شبح الخلافات والنزاعات الداخلية التي تفضي إلى الصراع بين أفراد المجتمع وترديهم في هاوية التمزق والضياع. لذلك أولاه القرآن الكريم أهمية خاصة ووضع الأسس المتينة التي يركز عليها بناؤه، ونوّه بأهميته في أداء الإنسان لمهمته الاستخلافية في الأرض، وأرشد. في المقابل. إلى ما يحمي هذا البناء ويجنبه عوامل الهدم والتقويض حتى يبقى قائما يمنع عن المجتمعات أسباب الفتن ومحاذير السقوط. وقد انتهينا إلى جملة من النتائج نوردها فيما يلي:

1 _ أن مفهوم السلم الاجتماعي يحيل إلى حالة من الاستقرار والطمأنينة والسكينة والتضامن والتعاون التي يعيشها المجتمع، ويحس الأفراد في ظلها بالأمن والسلامة.

2 _ أن مفهوم السلم الاجتماعي في القرآن الكريم حالة عامة من الأمن التام، والاستقرار السياسي، والرخاء الاقتصادي التي تفضي إلى البناء الحضاري والعمران البشري في بيئة متكافلة ومتكاتفه مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه البخاري: {مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ: مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُجَى}.

3_ أن السلم الاجتماعي يحتل مساحة مركزية في القرآن الكريم استنادا إلى أهمية المجتمع وحاجته الملحة لهذا السلم ليقوم الأفراد بوظيفتهم الاستخلافية التي أناطهم الله بها، وأن غيابه سيتسبب في تعطيلها وفقدان الغاية التي خلقوا من أجلها وهي التعبد لله بعمارة الأرض واستصلاحها في ضوء الوحي.

4_ أن السلم الاجتماعي في القرآن الكريم يرقى إلى درجة الفريضة الشرعية، لأن القيام بواجب الاستخلاف يستلزم تحقق هذا السلم، وتحوّله إلى واقع معاش.

5_ أن سياق الآيات القرآنية يوضّح بجلاء أن السلم الاجتماعي. بغض النظر عن كل الاختلافات الموجودة بين المجموعات البشرية في مشارق الأرض ومغاربها. حاجة حياتية مركوزة في فطرة الإنسان.

6_ أن الخطاب القرآني في كثير من نصوصه يربط ربطا محكما بين السلم الاجتماعي والعمران البشري بحيث يغدو ضرورة حضارية لا مناص منها، فهو يؤكد صراحة أن الإنسان لا يمكنه بناء حضارة في غياب السلم الاجتماعي.

7_ أن الخطاب القرآني يؤكد أن السلم الاجتماعي لا يخص المجتمعات الإسلامية فقط، بل يتعداه إلى الأمم والشعوب الأخرى المختلفة عنه في الدين واللغة واللون والجنس وغيرها، فهو حق مشروع للإنسانية جميعا، والمطلوب أن تعيش في تناغم وسلام ووثام.

6. قائمة المراجع

1. <https://bit.ly/2SNN4mn>. (د ت). تم الاسترداد من <https://bit.ly/2SNN4mn>
2. أبو بكر الجزائري، جابر بن موسى. (1990). *أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير*. ج 1. السعودية: راسم للدعاية والإعلان.
3. بن إسماعيل البخاري، أبو عبد الله محمد. (1987). *صحيح البخاري: كتاب المناقب - باب علامات النبوة في الإسلام*. (مصطفى ديب البغا، المحرر) اليمامة: دار ابن كثير.
4. بن جرير الطبري، محمد. (2001). *جامع البيان عن التأويل أي القرآن (تفسير الطبري)*. ج 17. (المجلد 1). (عبد الله بن عبد المحسن التركي، المحرر) الرياض: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع.
5. بن عاشور، محمد الطاهر. (1984). *التحرير والتنوير*. ج 11. ج 6. تونس: الدار التونسية للنشر.
6. بن علي رضا، محمد رشيد. (1990). *تفسير المنار*. ج 6. ج 8. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
7. بن فارس، أحمد. (1979). *معجم مقاييس اللغة*. ج 3. (عبد السلام محمد هارون، المحرر) بيروت: دار الفكر.
8. بن مكرم بن منظور، أبو الفضل محمد. (2003). *لسان العرب*. ج 7. بيروت: دار صادر.
9. بن ناصر السعدي، عبد الرحمن. (2002). *تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان* (المجلد 1). بيروت: مؤسسة الرسالة.
10. بن نبي، مالك. (1986). *ميلاد مجتمع*. (عبد الصبور شاهين، المترجمون) دمشق: دار الفكر.
11. بيجوفيتش، علي عزت. (1994). *الإسلام بين الشرق والغرب* (المجلد 1). (محمد يوسف عدس، المترجمون) بيروت: مؤسسة العلم الحديث.
12. جاد، يحيى رضا. (2016, 01 14). *سنة التعارف في القرآن الكريم*. تم الاسترداد من <https://bit.ly/3glBpNH> حبل الله:

13. حامد، أبو زيد نصر. (1998). مفهوم النص دراسة في علوم القرآن. (ط1)، بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.
14. حسن، إبراهيم. (15 04, 2013). مفهوم الجماعة ومفهوم المجتمع. تم الاسترداد من <https://bit.ly/3q9C5zU>
15. الحسن، إحسان محمد. (1999). موسوعة علم الاجتماع (المجلد 1). بيروت: الدار العربية للموسوعات.
16. ديورانت، ول. (1988). قصة الحضارة. ج 1. (محي الدين صابر، المحرر، وزكي نجيب محمود، المترجمون) بيروت: دار الجيل.
17. راجي محمد، وكناس حسن. (2003). موسوعة المعرفة (المجلد 1). بيروت: دار المعرفة.
18. رمزي، إسكندر نبيل. (1988). الأمن الاجتماعي وقضية الحرية (المجلد 1). الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
19. الصفار، حسن. (2002). السلم الاجتماعي مقوماته وحمايته. لندن: دار الساقى.
20. عامر نريمان، و آخرون. (2013). عوامل السلم الأهلي والنزاع الأهلي في سوريا. سوريا: مركز المجتمع المدني والديمقراطية في سوريا. ccscs
21. الغزالي، محمد. (د ت). الإسلام والأوضاع الاقتصادية. القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
22. قطب، سيد. (1978). في ظلال القرآن. ج 1. ج 3. ج 4. ج 5. ج 6. بيروت: دار الشروق.
23. لفظ (السلام) في القرآن الكريم. (04 04, 2011). تم الاسترداد من إسلام ويب: <https://bit.ly/3wEZrQn>
24. مسلم بن الحجاج، أبو الحسين. (1972). صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب -باب تحريم الظلم-. بيروت: دار إحياء التراث.
25. مفهوم السلم الأهلي. (د ت). تم الاسترداد من <https://bit.ly/3gLQ8Y2>